الحـــــوار مع الآخـــــر من منـــــظور إســـلامي

ـ شروط الجدوى في عصر عولمة الرؤية الغربية

بحث من إعداد

أ . د . حسن كاتب

أستاذ التعليم العالي

ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة منتوري ـ قسنطينة . الجزائر

مقدم إلى مؤتمر الحوار مع الآخر . جامعة الشارقة

١٦ ـ ١٨ أفريل ٢٠٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

منذ أن اقتحمت مقولات هنتغتون حول صدام الحضارات ، وفوكوياما حول نهاية التاريخ عالم الأفكار في بدايات العقد الأخير من القرن الماضي ، انشغل العالم الإسلامي ، وأولو الرأي والفكر فيه على وجه الخصوص ، بالحديث عن مسألة الحوار مع الآخر وموقعها في منظومة الفكر الإسلامي . ولئن كانت الدعوة إلى حوار الأديان وممارستها فعليا قد سبقت ذلك بأمد بعيد ، فإن الاهتمام بمسألة الحوار في حد ذاتها ، بغض النظر عن طبيعتها ، هل تكون حوارا بين الأديان أم بين الحضارات ، ظلت محصورة في دوائر محدودة ، هي التي تتنادى إلى مثل هذه الحوارات ، وتمارسها بدوافع متعددة ومتباينة ، ومن منطلقات متباعدة ، دون أن تثير اهتمام القطاعات العريضة في بلاد المسلمين ، فضلا عن أن تكون محل عناية عموم الغربيين . لقد حظي الحديث عن هذا الموضوع بمساحة واسعة من سجالات المشتغلين بقضايا الفكر في عالمنا الإسلامي ، وكانت لهم مواقف عديدة تصل حد التناقض منه . ولكن الذي نريد أن نتوقف عنه ابتداء في صدارة هذه الورقة يتعلق أساسا بإيضاح الرؤية الإسلامية لفكرة الحوار مع الآخر ؛ فمن المعلوم أن الإسلام أولى عناية كبرى لمسألة الحوار بوصفه سبيلا للتواصل بين الناس مهما اختلفت رؤاهم وقناعاتهم . وحسبنا دليلا على ذلك أن القرآن الكريم ، وإن لم يرد فيه لفظ الحوار بصيغة المصدر ، ولم ترد فيه مشتقات مادته بهذه الدلالة إلا في ثلاث مواضع [١] ، فإنه أورد مادة ق و ل بمختلف مشتقاتها ١٧١٨ مرة [٢] ، ومن نافلة القول الإشارة إلى أن قوام الحوار هو تبادل القول بين أطراف الحوار . والقرآن الكريم زاخر بضروب شتى من الحوار مع الآخر ، كحوار الأنبياء مع أقوامهم المناوئين لدعواتهم ، وحوار أفراد من المؤمنين أو أهل الخير مع أقران لهم يخالفونهم أو يسلكون عير مسلكهم ... ولسنا في معرض التدليل على ذلك ، فهو أوضح من أن يحتاج إلى توضيح أو بيان . غير أن ما ينبغي التوقف عنده ، هو تحديد طبيعة الحوار مع الآخر ، كما ينشده الإسلام ، وإيضاح شروط ممارسته ، والتدابير اللازمة للتمكن من جعله مثمرا ومجديا محققا للغايات المرسومة له ، في عصرنا هذا الذي يتسم بسعي العرب إلى عولمة تصوره للكون والحياة .

١ ـ منطلقات لا بد منها للمحاور :

إن مما لا ينبغي أن يغيب عن ذهن المسلم مطلقا أن انتماءه إلى أمة أراد الله لها أن تكون شاهدة على الناس ، وأن يكون هو الشهيد عليها (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون

---

[١] هذه المواضع ، هي قوله تعالى : فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا (سورة : الكهف ، الآية : ٣٤) ، وقوله : قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم سواك رجلا (سورة : الكهف ، الآية : ٣٧) وقوله : قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير سورة : المجادلة ، الآية : ١)

[٢] انظر : هداية الرحمن لألفاظ القرآن . دليل ألفبائي مفهرس لمواضع ألفاظ وآيات القرآن الكريم . محمد صالح البنداق . منشورات دار الآفاق الجديدة . بيروت . ط ١ . ١٩٨١ . ص ٢٩٣ ـ ٣٠٦ .

الرسول عليكم شهيدا) [٣] يفرض عليه أن يكون صاحب رسالة ، عاملا على تبليغها ، حريصا على أداء هذه المهمة ، موقنا بأن ما بين يديه هو هداية الله البشرية التي سلمت من عوادي المحرفين والمبطلين. وإلى جانب ذلك لا يعزب عن إدراكه أن إرادة الله تعالى شاءت أن يظل الناس مختلفين ، فقد بين تعالى أنه لو شاء لجعل الإيمان قدرا مقدورا على الناس جميعا (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض جميعا) [٤] ولكن مشيئته تعالى قضت بأن يكون في الناس المؤمن والكافر (هو الذي خلقكم فمنكم مؤمن ومنكم كافر والله بما تعملون بصير) [٥] وأن يظلوا مختلفين على هذا النحو (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن من الجِنَّة والناس أجمعين) [٦] إن ذلك في المنظور الإسلامي قوام بقاء الحياة ونظام الكون ، إذ به يتحقق التدافع وبه يتميز أهل الحق عن أهل الباطل ، وبه يتبين من ينصر الله فيكون حقيقا بنصره عز وجل (ولولا دفاع الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز) . ولنلاحظ هنا أن هذه الآية تنبئنا أن انعدام دفاع الناس بعضهم ببعض من شأنه أن يؤدي إلى زوال كل ما يرمز إلى الحياة الروحية للبشر ، من صوامع وبيع ومساجد ... وفي ذلك اختلال لنظام الكون . وإلى جانب ذلك كله يوقن المسلم أن الله مظهر دينه (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) [٧]، وقاذف بالحق على الباطل ليدمغه فيزهق ، وجاعلٌ ، في نهاية المطاف ، كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى . ومرة أخرى نؤكد أن إظهار دين الله الحق لا يعني زوال ما سواه تماما ، وآية ذلك أنه حدثنا عن جعل كلمة الذين كفروا هي السفلى ، بما يعني عدم زوالها تماما . إن إدراك هذه المنطلقات مجتمعة هو الذي من شأنه أن يحدد ابتداءً أهداف الحوار مع الآخر ، وما من ريب في أن تحديد الأهداف أمر في غاية الأهمية ، وله انعكاسه على كل جوانب الحوار ومجرياته . إن الحوار مع الآخر ، من ثم ، لا ينبغي أن يجعل من تغيير معتقد الآخر قطب رحاه الذي يدور عليه ، والذي يجعل عدم تحققه نكسة للحوار أو إخفاقا في تحقيق غاياته . إن التمكن من الوصول إلى قلب الآخر ، أو عقله ، أمر محبذ بلا ريب ، ولكنه ليس وحده نهاية المطاف . لقد دعا الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إلى إجارة المشركين إن طلبوا ذلك ، وذلك من أجل غاية محددة تتمثل في تمكينهم من سماع كلام الله لعله يطرق أبواب قلوبهم فيدخلها ، ولكن ذلك ليس أمرا متحققا بالضرورة ، بدليل أنه عز وجل أعقب توجيهه هذا بأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بإبلاغ هذا المستجير مأمنه ، بما يعني بقاءه على شركه ، بعد سماعه كلام الله ، ولولا ذلك لكان له أن يبقى في

---

[٣] سورة : البقرة ، الآية : ١٤٣ .
[٤] سورة : يونس ، الآية : ٩٩ .
[٥] سورة : التغابن ، الآية : ٢ .
[٦] سورة : هود ، الآية : ١١٨ .
[٧] سورة : الصف ، الآية : ٩ .

أحضان المسلمين بوصفه أضحى واحدا منهم . وعلى أية حال فهم معذورون بوصفهم لا يعلمون ، ومن شأن تمكينهم من سماع كلام الله أن يتيح لهم الفرصة للعلم بما كانوا يجهلونه ، ويمْكنهم من ثم أن يختاروا ما شاءوا عن وعي ومعرفة . قال تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) [٨] . ومن هنا يتضح لنا أن الحوار يستهدف من بين ما يستهدف إقامة الحجة على الآخر . وقد أومأ القرآن الكريم إلى ذلك في غير ما موضع ، منها قوله تعالى : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما) [٩] ، وقوله (فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين) [١٠] . كما يستهدف الحوار إزالة اللبس وسوء الفهم بين المتحاورين ، إذ أن كثيرا من المشكلات والجدران الحاجزة المقامة بين الطرفين يمكن أن تتلاشى لو تمكن كل طرف من الإلمام بما عند الأخر والتعرف على حالته والملابسات المحيطة بواقعه وحالته الفكرية وأوضاعه الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية . هذا في ما يتعلق بمقاصد الحوار وغاياته في نظر المسلم المحاور ، ولكن كيف يتعين أن تكون حالة هذا المسلم عند الحوار ؟

إن استقراء ما في القرآن الكريم من نماذج حية للحوار تجعلنا نستخلص أن المبادر بالحوار ينبغي أولا أن يعرف نفسه ، على حد تعبير الأستاذ مالك بن نبي [١١] ، ومعرفة النفس وما تملكه من إمكانات ووزنها وقيمة ما بين يديها بالقياس إلى ما يحوزه الآخر ، تمكن هذا المسلم من أن يتحرك بوعي واقتدار وبواقعية ، غير مغال في تقدير إمكاناته ، وغير مزهو أو مباه بما لا وجود له في الواقع مباهاة ربما عدها الطرف الآخر غرورا يزهده في أطروحاته . إنه يعرض الوحي والهداية الربانية ، ولكن ما هو حظه هو نفسه منها ؟ أين بنو دينه من تمثلها وتطبيقها على أرض الواقع ؟ هذا من جهة . ومن جهة أخرى أين موقعه مما يباهي به الطرف الآخر من رقي علمي وتقني ؟ وهل يستجمع هو وقومه شرائط الخلافة في الأرض التي تمثل روح الرسالة الإلهية ، أم أنهم المتخلفون فيها الذين يقدمون ، بتخلفهم الناجم عن إعراضهم عن تفعيل عقيدتهم لتكون محفزا لهم على الفعل الحضاري ، المثل السيء الذي ينفّر الناس ؟ ولا شك في أن الأمرين معا متصلان ، لا انفصام بينهما ، على نقيض ما يتصور بعض الناس منا . ولقد أصاب الأستاذ مالك بن نبي كبد الحقيقة حين نبه ذات يوم إلى أن الأرض لا تستطيع أن ترتوي من ماء يأتي من أسفلها " وذلك بحكم السنن الإلهية عن طريق الجاذبية " [١٢] . إن المتحاور الذي ينطلق من هذه النظرة يحقق شرطا ضروريا يمكنه من تجنب الشعور بمركب النقص اتجاه ما عند الأخر

---

[٨] سورة : التوبة ، الآية : ٦ .
[٩] سورة : النساء ، الآية : ١٦٥ .
[١٠] سورة : الأنعام ، الآية : ١٤٩ .
[١١] مالك بن نبي : دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين . إصدار ندوة مالك بن نبي . دار الفكر . دمشق . ١٩٧٨ .
[١٢] المرجع السابق . ص ٣٧ .

، ذلك الشعور الذي ينعكس على الحوار نفسه فيحوله ، كما هو حاصل في معظم موائد الحوار المنصوبة في أيامنا هذه ، إلى مساع للدفاع عن النفس أو عن التاريخ والحاضر البئيس حقا ، ويحول المحاور لا شعوريا إلى متهم ماثل أما قاض يكيل له التهم وهو يحاول أن يتنصل منها . إن المسلمين الأول ، وقد كان أكثرهم أعرابا أميين ، كانوا بفعل عقيدتهم المحفزة يمتلكون روح الفعل الحضاري ، الأمر الذي غرس فيهم الشعور بتحمل رسالة إنقاذ البشرية وفتح طريق الهدي الرباني أمامها ، لم يكونوا يجدون غضاضة في كل حواراتهم مع الناس سواء أكانوا من بناة المدنية الفارسية العريقة أم من حماة الإمبراطورية الرومانية الكبرى ، أم من ورثة الفكر اليوناني العميق ، في الإعلان عن أنهم يضطلعون بمهمة إنقاذ ، ولم تعشهم أضواء الواقع المادي الذي تمثله هذه الأطراف مجتمعة فتحجب عنهم الرؤية الصحيحة إلى ما خلف الأكمة ، وما وراء ظاهر الحياة الدنيا وزخرفها الحامل لبذور الفناء والتهاوي . لقد كانوا يشعرون بإرادة عطاء رسالي وفعل حضاري لا تبهره إمكانات المدنية المتكدسة . وهذا هو بالضبط ما ينعته عديد من الكتاب الإسلاميين بالاستعلاء الإيماني ، ولعل مشهد ربعي بن عامر ، وهو يطأ طنافس خيمة رستم الفارسي خير ما يجسد هذا الاستعلاء الإيماني وهذا الإدراك لطبيعة المهمة التي يتولاها المسلم بحكم موقعه شاهدا على الناس . ولنا أن نسلك في عداد هذا ، ولكن في اتجاه الحوار المفضي إلى الانتفاع بما عند الأخر ، حوار الفكر الإسلامي مع الفكر اليوناني والروماني منذ الاتصال بهما في أوائل العصر الأموي ، إذ لم يندفع اندفاعا عشوائيا لتبني كل أطروحاته وتقبلها على علاته ، بل عمل على انتقاء ما رآه حريا بتحقيق مقاصده وعياته من منطق وفلسفة ، دون تعارض مع كلياته وثوابته ، وأعرض كلية عن كل ما لا يتماشى مع مقومات التصور الإسلامي ، وفي هذا السياق ، نذكر إحجام المسلمين عن ترجمة الأدب الملحمي اليوناني (الإلياذة والأوديسة ...) ، [١٣]وهو أدب ، كما هو معلوم يصطبغ بالصبغة الوثنية ، وقوامه صراع الآلهة المتعددة في ما بينها ، وصراعها مع البشر ، ووجود أنصاف الآلهة .... إن الاستعلاء الإيماني هو الذي أملى عليهم كل ذلك ، ولكنه استعلاء ينأى بنفسه عن السقوط في هاوية العُجب والكبر والتعالي الأجوف عن الآخر ، كما أسلفنا .

إن هذه النظرة التي حددنا معالمها هي التي تجعل الحوار ، في وقر المسلم ، قائما على قاعدة الندية ، وليس على حالة الاستخذاء والخنوع والاستعداد لقبول إملاءات الآخر ، ما دام يملك أسباب القوة المادية وأدوات القهر والإكراه .

إن هذه هي الجوانب التي ينبغي أن يستحضرها المسلم في حواره مع الآخر المختلف ، وهي المرتكزات التي من شأنها أن لا تجعل الحوار يحيد عن أهدافه من جهة ، وتحقق له الجدوى والنجاعة المطلوبة . ولكن ما هي الشروط التي ينبغي أن تتوفر في الآخر حتى يسوغ لنا الحوار معه ، بمبادرة منا أو منه ؟

<u>من هو الآخر في عصر عولمة الرؤية الغربية ؟ :</u>

---

[١٣] د . مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا . مكتبة الجديد . تونس . د . ت . ص ٢٥ .

مما لا حاجة إلى بيانه أن الآخر هو المختلف في التصور والنظرة إلى الكون والحياة والإنسان . غير أن الذي ينبغي التركيز عليه هو ضرورة معرفة الآخر الداعي إلى الحوار أو المدعو إليه لتحديد موضوع الحوار ومجاله وغائيته . وضمن دائرة الآخر تتدرج أصناف شتى ، فثمة من لا ، جدوى من الحوار معه لأنه ابتداء قرر صم أذنيه عن سماع أي صوت غير صوت ما هو عليه وما ألف الركون إليه ، ومن ثم فاشتراكه في الحوار ليس له من هدف إلا محاولة جر محاوره إلى مربع قناعاته ، وحمله عليها بضروب شتى من الإرهاب الفكري ، أو على الأقل تشكيكه في قناعاته ، أو تعقيده ووضعه في موضع الاتهام لينخرط في الدفاع عن نفسه ومعتقده وتاريخه في ذلة وخنوع ، وليضحى مستعدا لتقديم تنازلات جوهرية تمس ثوابته وتجعله في نهاية المطاف ليس له من الإسلام إلا الانتماء الصوري . وهذا الصنف هو الذي صوره قول الله تعالى : ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد [١٤] . وقوله أيضا : ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين . وهم ينهون عنه وينأون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون [١٥] . إن معسول الكلام والحذلقة اللفظية لا يمكن أن تغيب حقيقة كون هؤلاء في أعماقهم لا يملكون قابلية مراجعة ما عندهم ، لأنهم منذ البداية قد صموا قلوبهم وآذانهم ، الأمر الذي يجعل الحوار أساسا غير ذي جدوى ، بل ينسفه من قواعده . ولا ريب في أن محاورة هذا الصنف لا طائل من ورائه . وثمة صنف آخر يبدي استعدادا لسماع وجهة النظر المخالفة ومناقشة ما تنطوي عليه بعقل مفتوح ، والتعامل بإيجابية مع ما سيسفر عنه من نتائج قد تكون مناقضة جوهريا لقناعاتهم وأفكارهم . وإذا كان لنا أن ننزل هذا على واقعنا المعاصر ، فإننا نسارع إلى التأكيد على الآخر الذي يتوجه إليه الحوار هو الغرب بمفهومه الحضاري ، علما بأن رؤية الغرب تمت عولمتها وأضحت لونا يصبغ خريطة العالم في مجموعه ، باستثناء جيوب صغيرة في عالمنا الإسلامي ، ما زالت بمنأى عن زحف هذه العولمة المغرِّبة . لقد عاش العالم منذ العقد الثاني من القرن الميلادي المنقضي حتى ثمانينياته على وقع حرب باردة قسمت العالم إيديولوجيا إلى معسكر غربي رأسمالي (أو ليبيرالي) ، كما يحب أن يتسمى) و معسكر شرقي شيوعي . وحسب كثير من المغفلين أن خطوط التلاقي بينهما مقطوعة ، وأن التمايز بينهما جوهري ومبدئي ، ومن ثم فإن الارتماء في أحضان أحدهما كفيل بحمايته من غوائل الطرف الآخر . وقد بينت مجريات الأحداث لاحقا أن الشيوعية لم تكن في جوهرها إلا حادثا تعرضت له المدنية الغربية في طريقها ، وأن الشرق عندئذ ليس إلا مفهوما جغرافيا أجوف لا اعتداد به

---

[١٤] سورة : البقرة ، الآية : ٢٠٤ – ٢٠٦ .
[١٥] سورة : الأنعام ، الآية : ٢٥ .

في المنظور التاريخي الصحيح ، بل إن الشيوعية ذاتها لم تكن إلا وجها آخر لعملة واحدة ، هي الغرب الحضاري المنبثق أساسا من المواريث اليهودية المسيحية المتخفية تحت أقنعة مضللة . وحسبنا دليلا على ذلك أنه في الوقت الذي كانت أوروبا الرأسمالية تقدم احتلال بلدان إفريقيا وآسيا المتخلفة على أنه " عمل تمديني " لهذه البلاد وتسريع لتطويرها ، بعد أن تخلفت عن ركب الإنسانية طويلا ، وجدنا منظري الماركسية الكبار يستخدمون المعجم نفسه في الدفاع عن الحملة الاستعمارية ، إذ كتب إنجلز رفيق ماركس معلقا على أسر الأمير عبد القادر الجزائري يقول : " إن رأينا بالإجمال ، هو أن من حسن التوفيق الكبير أن يكون الزعيم العربي قد أُسر . فقد كان صراع البدو بلا أمل . وعلى الرغم من أن الكيفية التي أدار بها الحرب جنود أفظاظ من أمثال بوجو تستأهل الإدانة الشديدة ، فإن فتح الجزائر واقعة مهمة وموائمة لتقدم الحضارة . (....) ولقد كان فتح الجزائر قد أرغم بايات تونس وطرابلس ، وكذلك امبراطور مراكش ، على الانخراط في طريق الحضارة " [١٦] . أما الشعب الجزائري الذي تعرض للعدوان واعتُ٣دي عليه بشكل سافر فهو في نظر إنجلز يستحق ما وقع له ذلك أنه " لا يجوز أن ننسى أن أولئك البدو أنفسهم هم شعب من اللصوص ، وسائلهم الرئيسية للعيش هي غزو بعضهم بعضا ، أو غزو القرويين الحضر ، ناهبين ما يجدونه ، ومعملين يد التقتيل في كل من يقاوم ، وبائعين باقي الأسرى كعبيد . إن جميع الشعوب البربر الأحرار هؤلاء يبدون للناظر من بعيد في غاية العزة والنبل والبهاء ، ولكن ما عليك إلا أن تقترب منهم حتى تكتشف أن الشره إلى الكسب هو دافعهم ومحركهم ، مثلهم مثل الأمم الأكثر تحضرا ، وكل ما في الأمر أنهم يلجؤون إلى وسائل أكثر فجاجة وفظاظة . وبعد كل حساب ، فإن البورجوازي المعاصر ، مع الحضارة والصناعة والنظام و " الأنوار " التي يحملها معه كل حال ، لأفضل من المولى الإقطاعي أو اللص قاطع الطريق ، ومن الطور الهمجي من المجتمع الذي ينتميان إليه " [١٧] . ولم يكن إنجلز ورفيقه ماركس بدعا من نظرائهما ومن سبقهما من مفكري " عصر الأنوار " ، وما كان لهما أن يعزفا نغمة مستقلة عن الجو السائد في عصرهما وقبله وبعده . إن كاتبا فرنسيا كبيرا مثل جول فارن كتب في أواخر القرن الماضي رواية ملحمية لا تحدثنا عن بطولات جيش بلاده ومآثر بني جلدته ، بل تتمحض للإشادة بفتح روسيا للبلاد الإسلامية في بخارى . وهكذا يتضح أن المركزية الأوروبية هي الحبل الذي يشد الرؤية الغربية برمتها للآخر ، وذلك مهما اختلفت تلاوينها وتمظهراتها . وإذا كان مالك بن نبي في أواخر خمسينيات القرن الماضي ، يتحدث ، انصلاقا من الواقع المعيش يومذاك عن محور : واشنطن ـ موسكو ، في مقابل محور : طنجة وجاكرتا

---

[١٦] الماركسية والجزائر ـ ماركس إنجلز . ترجمة جورج طرابيشي . دار الطليعة . بيروت . ط ١ . ١٩٧٨ . ص ١٤ .

[١٧] المرجع السابق . ص ١٤ ، ١٥ .

[18] ، فإن سيرورة التاريخ اليوم لم تبق مجالا إلا لمحور واشنطن ، في عالم أضحى وحيد القرن . أما ما عدا ذلك فحواش وأطراف للمركز ، حتى وإن طمحت أوروبا الموحدة إلى أن تكون قطبا له تميزه ، ولكنه تميز أثبتت مجريات الأحداث عبثيته من جهة ، وأكدت من جهة أخرى عدم جديته ، خاصة في ما يتعلق بقضايا العالم الإسلامي الساخنة . لقد تمكنت أمريكا من أن تحمل لواء التبشير بالقيم الغربية وأن تسوق أمامها الغرب برمته ، بل تمكنت من أن تصدر بالقوة رؤيتها إلى أكثر أرجاء العالم المسكون . ولعلنا إذا نظرنا إلى مختلف ثقافات الشعوب في عالم اليوم لن نعدم تلمس آثار هذه العولمة القسرية للأنماط والقيم الثقافية الغربية ، فلم تسلم من ذلك اليابان وبلدان شرق آسيا ، كما لم تسلم من ذلك الشعوب الإفريقية مثلما هو واضح للعيان . فلا مناص إذن من التأكيد على أن الطرف الأخر للحوار ليس إلا الغرب الحضاري برمته ، دون فصل للمركز عن الحواشي . نعم يجوز ، بل يتوجب أن يكون حوارنا مع الحواشي مختلفا في منهجه وغائيته عن حوارنا مع المركز ، ولكن ذلك لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا القواسم المشتركة والمرنكزات الموحدة . وداخل هذا الغرب بمركزه وحواشيه يتوجب التمييز بالضرورة بين جهات مختلفة ، فثمة المؤسسات التي تملك مقاليد الأمور في هذه المجتمعات ، وثمة القطاعات العريضة من الشعوب التي تتفاوت في قابليتها للحوار واستجماعها لمتطلباته .

منهج الحوار وموضوعه :

نييم وجهنا كرة أخرى شطر القرآن الكريم الذي يرسم لنا بدقة ووضوح المنهج الأمثل لحوار الآخر المختلف ، إذ طالما ألح على أنه ينبغي أن يكون بالتي هي أحسن ، فقد قال تعالى : ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون [19] . إن هذه الآية ، على وجه الخصوص ترسم لنا بوضوح معالم طريق هذا الحوار المثمر ، فهي :

أ ـ تدعونا إلى الحوار بالتي هي أحسن ، وليس معنى التي هي أحسن مقصورا على استعمال لغة الرفق واللين ، والبعد عن منطق القوة والقهر فقط ، ولكنها تعني ـ في تقديرنا ـ ضرورة استخدام ما هو أحسن مما عند الآخر من حجج وأساليب وصيغ . ويعني أيضا ضرورة امتلاك المسلم ما هو أحسن مما عند الآخرين من أخلاق وآداب وسلوك وعلم ، لكي يتمكن من النفاذ إلى عقولهم وقلوبهم دون أن تصده حواجز الواقع .

---

[18] تناول ذلك بالتفصيل في كتابه : الفكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونج . دار الفكر . دمشق ١٩٨١ .

[19] سورة : العنكبوت ، الآية : ٤٦ .

ب ـ وتبين لنا أن الذين ظلموا مستثنون من هذه الدعوة إلى الحوار ، لأنهم بظلمهم هذا أقصوا نفسهم من أهلية الحوار ، واختاروا لغة أخرى ، لا يسع المسلمون إلا أن يتعاملوا معها بما يناسبها ووفق متطلبات الواقع وبما يحقق مصلحة الإسلام والمسلمين .

ج ـ تحثنا على أن نلتمس القواسم المشتركة فنسلط عليها الضوء ، مع الحرص على الاعتزاز أساسا بمعتقدنا وقيمنا ، وهذا متجل من خلال تقديم ضمير الجماعة المتكلمين على جماعة المخاطبين ، في قوله تعالى : وقولوا آمنا بما أنزل **إلينا** وأنزل إليكم **وإلهنا** وإلهكم واحد و**نحن** له مسلمون .

ولا ريب في أن استعمال لفظ أهل الكتاب في خطاب النصارى واليهود ينطوي على هذا السعي إلى إبراز القواسم المشتركة ، حيث إن امتلاك النص المتضمن للهدي الإلهي هو الرابط الذي يجمع بين المتحاورين مما يجعلهم محكوما عليهم بوجوب التواصل والتعاون . ولكن لاستعمال هذا اللفظ غاية أخرى ، خصوصا لدى توجيه الخطاب إليهم ، كما في قوله تعالى : قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون [٢٠] . وتتمثل هذه الغاية في استمالة القوم باستعمال تسمية تحرك فيهم نوازع الاعتزاز والفخر . وقد نبه لذلك الشيخ عبد الحميد بن باديس حين قال في معرض تفسيره لهذه الآية : " وفي ندائهم بأهل الكتاب تشريف وتعظيم لهم بإضافتهم للكتب ، وبعث لهم على قبول ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لأنه جاء بكتاب وهم أهل الكتاب ، واحتجاج عليهم بأن الإيمان بالكتاب الذي عندهم يقتضي الإيمان بالكتاب الذي جاء به لأنه من جنسه " [٢١] . ويستخلص الشيخ بعد ذلك ما يجدر أن يتحلى به المسلم في خطاب الآخر ، فيضيف : " هذا هو أدب الإسلام في دعوة غير أهله ليعلمنا كيف ينبغي أن نختار عند الدعوة لأحد أحسن ما يُدعى به وكيف ننتقي ما يناسب ما نريد دعوته إليه ، فدعاء الشخص بما يحب مما يلفته إليك ويفتح لك سمعه وقلبه . ودعاؤه بما يكره يكون أول حائل يبعد بينك وبينه " [٢٢] . وهذا هو ما يجسد القول اللين الذي أوصى به الله تعالى نبييه موسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون ، حيث قال : " فاتيا فرعون فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى " [٢٣] . بل إن القرآن ليمضي إلى أبعد من ذلك ، فيدعو المؤمنين إلى عدم مقابلة خطاب الجاهلين ، بمثله من السوء ، بل يدعو إلى قول سلام يناقض تماما ما تلفظوا به . لقد قال الله تعالى : وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما [٢٤] ، يقول الرازي لدى حديثه عن هذه

---

[٢٠] سورة : البقرة ، الآية : ١٣٦ .

[٢١] عبد الحميد بن باديس : مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . منشورات وزارة الشؤون الدينية . الجزائر . ط ١ . ١٩٨٢ . ص ٥١ – ٥٢ .

[٢٢] المرجع نفسه . ص ٥٢ .

[٢٣] سورة : طه ، الآية : ٤٣ ، ٤٤ .

[٢٤] سورة : الفرقان ، الآية : ٦٣ .

الآية : " معناه لا نجاهلكم ولا خير بيننا ولا شر ، أي نسلم منكم تسليما ، فأقيم السلام مقام التسليم " [٢٥] . ويقول ابن باديس : " ولم يذكر ما يخاطبهم به الجاهلون للعلم بأن خطاب الجاهل ، أي السفيه ، لا يكون إلا سوءًا مما يمليه عليه جهله وسفهه (...) وإذا خاطبهم السفهاء بما لاينبغي من الخطاب قابلوهم بالحلم وقالوا لهم سلاما لأنهم سلموا من الجهل فسلم المخاطب لهم من أن يجهلوا عليه ، ولو جهل ، أو قالوا لهم من الكلام ما فيه سلامة من الأذى " [٢٦] . ويستشهد بعد ذلك بما جاء في الصحيح من أن عائشة رضي الله عنها لم تنتبه إلى مقصود النبي صلى الله عليه وسلم من رده بكلمة وعليكم على يهود قالوا له : السام عليكم ، والسام يعني الموت فردت عليهم قائلة : وعليكم السام واللعنة وغضب الله عليكم ، فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم : مهلا يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش ، إن الله يحب الرفق في الأمر كلها ، فقالت له عائشة : أو لم تسمع ما قالوا ؟ ، فقال لها : أو لو تسمعي ما قلت رددتُ عليهم . قد قلت وعليكم فيستجاب لي فيهم (لأنه دعاء بحق) ، ولا يستجاب لهم في (لأنه دعاء بباطل وظلم) فقد خاطبه هؤلاء الجاهلون بالسوء فقال لهم كلمة سالمة من القبح ليس فيها لفظ الإذاية ، وهو السام ، بعيدة عن الإيحاش ، خالصة للرفق ، فهي من القول السلام ، أي ذي السلام " [٢٧] . فإذا تقرر ذلك ووقر في عقولنا ، لا بد من التنبه إلى محذور ، وهو العمل على الحيلولة دون أن يتحول القول اللين المطلوب إلى مداهنة ، أو أن يفسر الأخر ذلك على هذا الأساس ، ذلك أن المداهنة تفضي إلى نتائج خطيرة على غايات الحوار ذاته . وقد نبه إلى هذا المنزلق ربنا عز وجل حين قال : ودوا لو تدهن فيدهنون [٢٨] . ولعل هذا الخط الرفيع الفاصل بين القول اللين والمداهنة مما يدركه أهل البصيرة ، تلك البصيرة التي جعلها الله عز وجل في موضع آخر من أدوات الدعوة إليه ، قال تعالى : " قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وما أنا من المشركين " [٢٩] وهي الغاية الأولى المتوخاة من الحوار مع الأخر ، كما أوضحنا ذلك من قبل .

وبعد أن عرفنا ما يتعين على المحاور المسلم أن يتصف به آن لنا أن نتوقف مليا عند غايات الحوار التي ألمحنا إليها في موضع سابق . من نافلة القول التأكيد على أن الدعوة إلى الله هي غاية الحوار الأولى في نظر المسلم . ولكن ثمة غايات أخرى إلى جنبها يمكن أن يهدف إليها الحوار ، أو على الأقل يمكن أن يحصلها المسلم من حواره الآخر . فثمة العمل على تصحيح فهم الأخر له ، لمعتقده ، لأخلاقه ، لتاريخه ، لحاضره ، وأكثر ذلك يتحقق عمليا عن طريق السلوك والمعاملة لا عن طريق

---

[٢٥] فخر الدين الرازي : التفسير الكبير . أو مفاتيح الغيب . دار الفكر . بيروت . ط ١ . ١٩٨١ . ١٢ / ١٠٨ .

[٢٦] ابن باديس : مجالس التذكير . ص ٢٧٣ .

[٢٧] المرجع نفسه . ص ٢٧٤ .

[٢٨] سورة : القلم ، الآية : ٩ .

[٢٩] سورة : يوسف ، الآية : ١٠٨ .

مجرد القول مهما كانت بلاغته وقوة حجته . ولقد شهد التاريخ ألوانا من الالتقاء والحوار أفضت إلى تحقيق نتائج إيجابية أفاد منها الآخر ، ومثلت فتحا في نظر المسلمين ، خاصة عندما كان ذلك الحوار يجري في ظروف يمتلك فيها المسلمون قوة الإيمان والثقافة ، كما حدث حين غزت جحافل المغول والتتار بلاد المسلمين وألحقت بهم هزائم نكراء ، ولكنه لم تمض إلا سنون قلائل بمقياس التاريخ الإنساني حتى استوعب الإسلام هؤلاء الدخلاء وغمرهم بأنواره . ولقد كانت ثمار هذا الحوار أحيانا حاسمة في مسار الأحداث ، دون أن تعني بالضرورة انتقال هذا الأخر إلى دائرة الإسلام ، كما هو شأن الحوار أو الاحتكاك العملي الذي شهدته الحروب الصليبية واستمر بعدها وأدى إلى ثورة عارمة على ممارسات الكنيسة في أوروبا وارتفاع الأصوات الداعية إلى الإصلاح الديني الذي غير مجرى أحداث تاريخ أوروبا ، بل تبعا لذلك تاريخ العالم برمته . ولعلنا بعد ذلك كله نضيف إلى أهداف الحوار أيضا تعرف المسلم على ما عند الأخر من نقاط القوة والضعف على حد سواء ، والحكمة ضالة المؤمن أين وجدها فهو أحق بها ، كما ورد في الأثر .

خلاصة :

إن الظروف العصيبة التي تمر بها أمتنا التي تتعرض لهجمة استكبارية لا تختلف عن تلك التي تعرضت لها في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي تجعل من الحوار مع الأخر (وخاصة مع أولي الرأي والفكر منه) أمرا لا مندوحة عنه ، وفق الشروط والمحاذير التي عرضنا لها في عجالة عبر صفحات هذه الورقة ، وهو السبيل الأنجع لصد المساعي الحثيثة التي تستخدم الحوار المفروض والذي يُدعى إليه سدنة الفكر الغربي بتلاوينه المختلفة ليتكفلوا بتسويق بضائع مغشوشة ذات آثار مدمرة على حاضر الأمة ومستقبلها ، فالمعلبات التي تغلف بها الديمقراطية بالمنظور الغربي مثلا تروج لهذا الفكر السياسي على أنه الحل السحري لكل مشكلات العالم ، ولكن تطبيقه مرهون بضرورة إخلاء الساحة من التوجهات والمشاريع والطروحات المعبرة عن أصالة الأمة ومعتقدها ورسالتها وقيمها ، لكي لا يتاح للجماهير أن تتخير إلا المشروع الغربي بتلوينات وتنويعات لا تشكل أدنى خطر عليه وعلى المروجين له . وهذا التلبيس والاعتماد على قلب الحقائق هو ذاته الذي جسدته محاولات قديمة سجلها التنزيل العزيز بقوله : " وإن منهم فريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب ، وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون " [٣٠] إن مجالس الحوار القائمة توجه ـ كما تؤكد كثير من المؤشرات والقرائن ـ من خلف ستائر أساتذة الصراع الفكري ـ على حد تعبير الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله ـ لتلزم المسلمين بما يعده هؤلاء من القيم الكونية القائمة على إعمال حرية الإرادة ، وبمقتضاها يطالب المسلمون بالإقرار مثلا بما ينعتونه بمساواة الرجال مع النساء مساواة تامة في الحقوق والواجبات (وهم يركزون على وجه الخصوص على قواعد الميراث ....

---

[٣٠] سورة : آل عمران ، الآية : ٧٨ .

) ويطالبون بحقوق الشواذ جنسيا والتعامل معهم بالطريقة نفسها التي أضحت قواعد سلوك في الغرب وأفضت في بعض بلدانه إلى الاعتراف بزواج المثليين وتقنينه كما هو معلوم . وهذا المسعى من الطرف الآخر مفض بلا ريب إلى وصول الحوار إلى طريق مسدود ، وعندئذ لا يملك المسلمون إلا أن يلتزموا بما دعاهم إليه ربهم في محكم تنزيله حين قال : قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، **فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** " .[٣١]

إن هذه الهزات العنيفة التي تتعرض لها الأمة تأتي ، في غمرة انسداد أفق لا نظير له ، تعرفه البشرية ، وإن لم تدرك طبيعته ومداه إلا فئة محدودة من المفكرين الذين ترتفع أصواتهم داعية إلى الحوار ، لا إلى المواجهة ، إدراكا منهم لمخاطرها وعواقبها البعيدة . ولقد دوى في سمع الزمان في مشارف نهاية القرن المنقضي صوت الفيلسوف الألماني الكبير : هانز جورج غادامير ، الذي أبصر النور في السنة الأولى منه ، وشاءت الأقدار أن يغادر الحياة الدنيا ، بعد عامين من انقضائه ، ليكون شاهدا على حربين عالميتين وحرب باردة أعقبتهما وحروب متواصلة تدور رحاها في البلاد المستضعفة بعد أن دفنت أوروبا سيوف الاقتتال بين بنيها إلى حين ، فما كان منه إلا أن يرفع عقيرته بهذه الدعوة المدوية : " أرى أن عالم اليوم لم يحقق تقدما في سبيل الحوار ، لكن الحقيقة القاسية للمستقبل تجبرنا على الحوار الحقيقي الذي يتيح التعرف على الأخر " . فهل ينبري للاضطلاع بهذه المهمة نفر من المسلمين مستجمعين شروطها متمثلين قول الله تعالى : " قل فلله الحجة الباغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين " [٣٢] ؟

---

[٣١] سورة : آل عمران ، الآية : ٦٤ .
[٣٢] سورة : الأنعام ، الآية : ١٤٩ .